

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٩ - سُورَةُ الْحَشْرِ

قال المهايي : سميت به لدلالة إخراج اليهود عنده ، على لطف الله وعنايته برسوله
والمؤمنين ، وقهره وغضبه على أعدائهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن .
وكان ابن عباس يقول : سورة بني النضير .
روى البخاري^(١) عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال :
سورة بني النضير .

وعنه قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بني النضير . وهم قوم من
اليهود . وهي مدنية . وآياها أربع وعشرون ، بلا خلاف .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٩ - سورة الحشر ، ١ - باب الجلاء من
أرض إلى أرض ، حديث رقم ١٨٦٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٢] (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ

الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ

فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ

مِيُونَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ)

« سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » تقدم القول في

تأويل نظيره .

ثم أشار إلى بيان بعض آثار عزته تعالى ، وإحكام حكمته ، إثر وصفه بالعدة القاهرة ،

والحكمة الباهرة على الإطلاق ، بقوله : « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ » يعني بني النضير من اليهود « مِنْ دِيَارِهِمْ » أى مساكنهم التى جاوروا بها

المسلمين حول المدينة ، لطفاً بهم « لِأَوَّلِ الْحَشْرِ » أى لأول الجمع لقتالهم . يعنى أخرجهم

تعالى بغيره لأول ما حشر لغزوهم . والتوقيت به إشارة إلى شدة الأخذ الربانى لهم ، وقوة

البطش والانتقام ، بقذف الرعب فى قلوبهم ، حتى اضطروا لأول الهجوم عليهم ، إلى الجلاء

والفرار ، كما يأتى .

« مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا » أى لشدة بأسهم ومنعتهم ، فصار آية لكم ، لأنه من

آثار سنته تعالى فى إذلال المفسدين وقهرهم . « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ »

أى من بأسه « فَأَنَّهُمْ اللَّهُ » أى عذابه ، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء « مِنْ حَيْثُ

لَمْ يَحْتَسِبُوا « أَى لم يظنوا » وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ « أَى أنزله إنزالاً شديداً فيها ، لدلالة مادة (القذف) عليه ، كأنه مقذوف الحجارة .

قال القاشانى : أَى نظر بنظر القهر إليهم فتأثروا به ، لاستحقاقهم لذلك ، ومخالفة الحبيب ومشاقته ومضادته ، ولوجود الشك في قلوبهم ، وكونهم على غير بصيرة من أمرهم ، وبينه من ربهم ، إذ لو كانوا أهل يقين ما وقع الرعب في قلوبهم ، ولعرفوا رسول الله ﷺ بنور اليقين ، وآمنوا به فلم يخالفوه .

« يُخْرِبُونَ بَيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ » أَى كيف حل بالمفسدين ما حل ونزل بهم ما نزل ، لتعلموا صدق الله في وعده ووعيده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَلَوْ لَا أَنَّ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ)

[٤] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)
« وَلَوْ لَا أَنَّ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ » أَى الخروج من أوطانهم « لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا » أَى بالقتل والسبي ، كما فعل بإخوانهم بنى قريظة . « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ » أَى الجلاء والعذاب « بِأَنَّهُمْ شَاقُوا » أَى خالفوا « اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أَى فيما نهاهم عنه من الفساد ، ونقض الميثاق . « وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أَى له في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا قَطَعْتُمْ مِّنْ لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَاطِعَةً عَلَىٰ أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَرِيْضَتِي أَلْفَسِقِينَ)

« مَا قَطَعْتُمْ مِّنْ لِّينَةٍ » أَى نخلة من نخيلهم إغاطة لهم « أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَاطِعَةً »

عَلَىٰ أَصُولِهِمَا فَبَإِذْنِ اللَّهِ « أَى أمره ورضاه ، لأن ذلك ليس للبعث والإضرار ، بل لتأييد قوة الحق ، وتصلب أهله ، وإرهاب المبطلين وإذلالهم ، كما قال تعالى « وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ » أَى لما فيه من إهانة العدو ، وإضعافه ونكايته .

تنبيه :

ذكر علماء الأخبار وأئمة السير ، أن سبب الأمر بجلاء بنى النضير هو نقضهم العهد . قال الإمام ابن القيم : لما قدم النبي ﷺ المدينة ، صار الكفار معه ثلاثة أقسام ، قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم ، آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه . ثم من هؤلاء من كان يجب ظهوره وانتصاره فى الباطن . ومنهم من كان يجب ظهور عدوه عليه وانتصارهم . ومنهم من دخل معه فى الظاهر ، وهو مع عدوه فى الباطن ، ليأمن الفريقين ، وهؤلاء هم المنافقون . فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمر به ربه - تبارك وتعالى - فصالح يهود المدينة ، وكتب بينهم كتاب أمن ، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . فكانت بنو قينقاع أول من نقض ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ، وحاصرهم ﷺ ، ثم أمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها . ثم نقض العهد بنو النضير . وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إليهم يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر ، وجلس رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ، فتأمروا على قتله ﷺ ، وأن يملو رجل فيلقى صخرة عليه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم ، وصعد ليلقى عليه صخرة ، ونزل الوحي على الرسول صلوات الله عليه بما أراد القوم . فقام ورجع عن معه من أصحابه إلى المدينة . وأمر بالتهيؤ لحربهم . ثم سار بالناس ، حتى نزول بهم فحاصرهم ست ليال ، فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل وتحريقها ، ثم قذف الله فى قلوبهم الرعب ،

وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجلبهم ، ويكفّ عن دماءهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف^(٢) بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت له خاصة يضيها حيث شاء ، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبادجانة ذكرا فقراً ، فأعطاهما رسول الله ﷺ ، ولم يُسلم من بني النضير إلا رجلان : يامين بن عمير ابن كعب ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاهما .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : ألم تر ما لقيت من ابن عمك ، وما همّ به من شأني ؟ فجعل يامين بن عمير لرجل جملاً على أن يقتل له عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها ، يُذكر فيها ما أصابهم الله به من نعمته ، وما سلط عليهم به رسول الله صلى عليه وسلم ، وما عمل به . فيهم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ » أي أعاد عليه من أموال بني النضير « فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » أي فما أجرتم على تحصيله خيلاً ولا ركاباً ، ولا تعبتم في القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . و (الإيجاف) من الوجيف ، وهو سرعة السير . و (الركاب) : ما يركب من الإبل ، غاب فيه كما غلب الراكب على راكبه . « وَلَكِنَّ »

(١) المتبة التي بأعلى الباب .

«اللَّهُ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ» أى من أهل الفساد والإفساد ليقوم الناس بالقسط .
«وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

قال الزمخشري : المعنى أن ماخول الله رسوله من أموال بنى النضير ، شىء لم يحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه الله عليهم ، وعلى مافى أيديهم ، كما كان يسلط رسله على أعدائهم . فالأمر فيه مفوض إليه ، يضعه حيث يشاء . يعنى أنه لا يقسم قسمة الغنائم التى قوتل عليها ، وأخذت عنوة وقهراً . وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ
مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ،
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » أى من أموال محاربيها ، وهويان
للأول ، ولذا لم يعطف عليه ، « فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ » أى النى الذى حقه أن يكون لمن ذكر « دُولَةً بَيْنَ
الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » أى يتداولونه وحدهم دون من هم أحق به . أو دولة جاهلية ، إذ كان
من عوائدهم استئثار الرؤساء والأغنياء بالغنائم دون الفقراء « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ » أى
من قسمة غنيمة أو فء « فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ » أى عن أخذه منها « فَانْتَهُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى لمن خالفه إلى مانهى عنه .

تنبيهات :

الأول - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بالآية على أن (الفئ) ما أخذ من الكفار بلا قتال ، وإيجاف خيل وركاب ، ومنه ما جلوا عنه خوفاً . و (الغنيمة) ما أخذ منهم بقتال ، كما تقدم في ^(١) قوله : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ...) الآية ، خلافاً لمن زعم أنهما بمعنى واحد ، أو فرق بينهما بغير ذلك . انتهى .

وكان الذي زعم أنهما بمعنى واحد رأى أن مجمل هذه الآية بيّنه آية الأنفال ، حتى زعم قتادة أن هذه منسوخة بتلك . قال - فيما رواه عنه ابن جرير ^(٢) - : كان الفئ في هؤلاء ثم نسخ ذلك في سورة الأنفال فقال : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) وجعل الخمس لمن كان له الفئ في سورة الحشر . وكانت الغنيمة تقسم خمسة أخماس . فأربعة أخماس لمن قاتل عليها ، ويقسم الخمس الثاني على خمسة أخماس : فخمس لله وللرسول ، وخمس لقراية رسول الله ﷺ في حياته ، وخمس لليتامى ، وخمس للمساكين ، وخمس لابن السبيل .

والمسألة مبسوبة في مطولات الفروع .

الثاني - قال الزمخشري : الأجود أن يكون قوله تعالى (وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) الآية - عامّاً في كل ما آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه . وأمر الفئ داخل في عمومه .

وفي (الإكليل) : فيه وجوب امتثال أوامره ونواهيه ﷺ .

قال العلماء : وكل ما ثبت عنه ﷺ ، يصح أن يقال إنه في القرآن ، أخذاً من هذه الآية . انتهى .

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وهذا الأخير من غلو الأثرين ، والإغراق في الاستنباط .
ثم بين تعالى من أصناف من تقدم ، الأحق بالعناية والرعاية ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)
« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » أى من مواطنهم
ومأولقاتهم « يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ » أى من العلوم والفضائل الخلقية « وَرِضْوَانًا »
أى منه ، وهو أعظم ما يرغب فيه ، « وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى يبذل النفوس لقوة
اليقين « أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » قال القاشانى : أى فى الإيمان اليقينى لتصديق أعمالهم
دعواهم ، إذ علامة وجدان اليقين ظهور أثره على الجوارح ، بحيث لا يمكن حركاتها إلا على
مقتضى شاهدتهم من العلم .

ثم أشار إلى أن إثبات هؤلاء بالمعطاء مما تطيب به نفوس إخوانهم الأنصار ، لحرصهم ، رضى
الله عنهم ، على الإيثار دون الاستئثار ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ
وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ
وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)
« وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ » أى دار الهجرة . أى توطنوها « وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ »
أى من قبل مجئ المهاجرين إليهم . وعطف (الإيمان) قيل : بتقدير عامل . أى وأخلصوا

الإيمان . وقيل : استعمل التبوؤ في لازم معناه ، وهو اللزوم والتمكّن . والمعنى : لزمو الدار والإيمان . وجوز أيضا تنزيل الإيمان منزلة المكان الذي يتمكّن فيه ، على أنه استعارة بالكفاية ، ويثبت له التبوؤ على طريق التخييل .

« يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ » أى لوجود الجنسية في الصفاء ، والموافقة في الدين والإخاء . قال الشهاب : المراد بمحببتهم المهاجرين هنا ، مواساتهم ، وعدم الاستئثار والتبرّم منهم ، إذا احتاجوا إليهم ، فالحجة كفاية عما ذكر ، كما قيل :

يا أخى ! والليّيب ، إن خانَ دهرٌ ، يستبين العدوّ ممن يحبُّ
« وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ » أى فى أنفسهم « حَاجَةً » أى طلباً أو حسداً « مِمَّا أُوتُوا » أى مما أُوتى المهاجرون من الفى وغيره ، لسلامة قلوبهم ، وطهارتها عن دواى الحرص . « وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » أى حاجة وفاقة .

قال القاشانى : لتجرّد دم وتوجههم إلى جناب القدس ، وترفعهم عن موادّ الرّجس ، وكون الفضيلة لهم أمراً ذاتياً ، باقتضاء الفطرة ، وفرط محبة الإخوان بالحقيقة ، والأعوان فى الطريقة . فتقدّمهم أصحابهم على أنفسهم ، لمكان الفتوة ، وكال المروّة ، ولقوة التوحيد ، والاحتراز عن حظ النفس .

تنبيه :

فى (الإكمال) : فى الآية مدح الإيثار فى حظوظ النفس والدنيا . انتهى .
وقال ابن كثير : هذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى ^(١) (وَيُطْعَمُونَ)
الطعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) ، وقوله ^(٢) (وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ) فإن هؤلاء
تصدّقوا ، وهم يحبّون ما تصدّقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ، ولا ضرورة به . وهؤلاء
آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدّق الصّدّيق

(١) [٧٦ / الإنسان / ٨] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

رضى الله عنه بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال رضى الله عنه : أبقيت لهم الله ورسوله ! وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل ، أحوج ما يكون إلى الماء ، فردّه الآخر إلى الثالث ، فواصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

« وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ » أى فيخالفها فيما يغلب عليها من حب المال ، وبفض الإتيان . « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى الفائزون بالسعادتين . وفى إضافة الشحّ إلى النفس إشارة لما قاله القاشاني من أن النفس مأوى كل شر ووصف ردىء ، وموطن كل رجس وخلق دنىء . والشح من غرازها المعجونة فى طينتها ، للازمته الجهة السفلية ، ومحبتها الحظوظ الجزئية ، فلا ينتفى منها إلا عند انتفائها . ولكن المعصوم من تلك الآفات والشور ، من عصمه الله .

قال ابن جرير (١) : الشح فى كلام العرب البخل ، ومنع الفضل من المال . والعلماء يرون أن الشح فى هذا الموضع إنما هو أكل أموال الناس بغير حق . ثم روى أن رجلاً أتى ابن مسعود فقال : يا أبا عبد الرحمن ! إنى أخشى أن تكون أصابتنى هذه الآية (وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ) فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ، وأنا رجل شحيح ، لا يكاد يخرج من يدي شيء ! قال : ليس ذاك بالشح الذى ذكر الله فى القرآن ، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً . ذلك البخل ، وبئس الشيء البخل ! انتهى .

والظاهر أنه عني بالعلماء علماء الأثر ، لأنه لم يفسر إلا بالمأثور . ولعل ابن مسعود فسّر الآية بذلك ، لدلالة سياقها عليه ، إذ القصد تزهيد الأنصار فى أن تطمح أنفسهم لما جعل للمهاجرين دونهم . أو هو يرى الفرق بين الشح والبخل بما ذكره . وعلى كل ، فلا يتعين تأويل الآية بما ذكره ، بل هى مما تحتمله .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وعن ابن زيد في الآية قال : من وُقِيَ شَحْ نَفْسِهِ فَلَمْ يَأْخُذْ مِنَ الْحَرَامِ شَيْئًا ، وَلَمْ يَقْرِبْهُ ، وَلَمْ يَدْعِهِ الشَّحُّ أَنْ يَحْبِسَ مِنَ الْحَلَالِ شَيْئًا ، فَهُوَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ .

وروى ابن جرير^(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : بَرَى مِنْ الشَّحِّ مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ ، وَقَرَى الضَّيْفَ ، وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الْفَحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ : أَمَرَهُمُ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا ، وَأَمَرَهُمُ بِالْفَجْرِ فَفَجَرُوا ، وَأَمَرَهُمُ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا .

وعن أبي هريرة^(٣) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لَا يَجْتَمِعُ غِبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا ، وَلَا يَجْتَمِعُ الشَّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ »

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) . والحديث

رقم ٦٤٨٧ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه النسائي في : ٢٥ - كتاب الجهاد ، ٨ - باب فضل من عمل في سبيل الله

على قدمه .

وَلَا تَجْمَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» يعنى بالذين جاءوا من بعدهم ، الذين هاجروا حين قوى الإسلام من بعد الذين هاجروا مُخْرَجِينَ من ديارهم . فالمراد مجيئهم إلى المدينة بعد مدة . والحجىء حسيّ . وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة . فالحجىء إما إلى الوجود ، أو إلى الإيمان . ونظير هذه الآية ، آية براءة^(١) : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) .

قال الشهاب : والمراد بدعاء اللاحق للسابق ، والخلف للسلف ، أنهم متبعون لهم . أو هو تعليم لهم بأن يدعوا لمن قبلهم ، ويذكروهم بالخير .

تنبيه :

جمل الزخشرى قوله (وَالَّذِينَ) عطفاً على (الْمُهَاجِرِينَ) كالوصول قبله في قوله : (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا ...) الخ ، فيكون قوله (يُحِبُّونَ) وقوله (يَقُولُونَ) حالين . وجوز السمين : وجهاً ثانياً ، وهو كون الموصول فيهما مبتدأ ، وما بعده خبره . وعندى أن هذا هو الوجه ، وما قبله تكلف ، وأن الموصولين مستأنفان لمدح إيمان الأنصار والتابعين لهم بتلك الأخلاق الفاضلة ، والخصال السكاملة . وما حمل الزخشرى ومن تابعه على الاقتصار على الوجه الأول إلا لتشمل أصناف من يستحق الفاء من فقراء كلّ ، كأنه قيل : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا ...) الخ ، (وَالْفُقَرَاءِ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا ...) الخ وللفقراء الذين جاءوا من بعدهم ... الخ ، مع أن سياق الآيات المذكورة ، ورعاية وقت نزولها ، والمهاجرون في جهد ، والأنصار في سعة ورغد يقضى بأن المقصود منها للفقراء ، هو فقراء المهاجرين خاصة ، وأن الذين تبوءوا الدار في غنى وعدم تشوف إليه ، لشدة محبتهم لإخوانهم ، بل رغبتهم في إبقائهم . ثم بين تعالى حال من يجيء بعدهم بأنه يثنى على من سبقه ، ويدعوه لاتباعه بما

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

أتوا ، واعتباطاً بما عملوا ، لأنهم بين مهاجر عن أهله وأمواله ، محبة في الله ورسوله ، وبين محب لمن هاجر ، مكرم له ، بل مؤثر إياه ، مما أشف عن قوة الإيمان ، والإخلاص في تدعيم روابط الإيقان . هذا هو الظاهر من نظم الآيات السكرية ، وذوق سوقها . وأما فقراء الصنفين الآخرين ، فإنهم يستحقون من النية قياساً على الصنف الأول ، لا شراً بهم في الفقر . إلا أنه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك أحد من الأنصار في تلك الواقعة فقراً ، إلا سهلاً وأباً دجاةً - كما تقدم - فأعطاهما صلى الله عليه وسلم . وأما في غيرها من الوقائع التي كثرت فيها المغانم ، فقد كان حظهم منها ما هو معروف ومبين في آيات آخر ، فإن التزليل الكريم بين مقاسم الأموال لذويها في عدة آيات .

روى ابن جرير ^(١) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ ^(٢) (إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ) حتى بلغ (عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ ^(٣) (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ . . .) الآية ، ثم قال : هذه الآية لهؤلاء . ثم قرأ ^(٤) (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) حتى بلغ ^(٥) (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ) ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ، فليس أحد إلا له فيها حق . ثم قال لئن عشت لياتين الراعي ، وهو يسيرُ حُرَّهُ ، نصيبه ، لم يعرق فيها جبينه !

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٩ / التوبة / ٦٠] . (٣) [٨ / الأنفال / ٤١] .

(٤) [٥٩ / الحشر / ٧] . (٥) [٥٩ / الحشر / ١٠] .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ »
يعنى بنى النضير المتقدم ذكرهم . وأخوتهم معهم أخوة دين واعتقاد ، أو أخوة صداقة وموالاته
لأنهم كانوا معهم سرّاً على المؤمنين « لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ » أى من دياركم « لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ
وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ » أى فى خذلانكم « أَحَدًا أَبَدًا » أى من الرسول صلوات الله عليه ،
والمؤمنين « وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ » أى لنعاوننكم .

قال ابن جرير^(١) : ذكر أن الذين نافقوا هم عبد الله بن أبى ابن سلول ، ووُدَيْعة ومالك
ابن نوفل ، وسُوَيْد ، وداعس . بعثوا إلى بنى النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ للحرب
أن اثبتوا وتمنعوا ، فإننا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم .
فتربصوا لذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يجلبهم ويكفّ عن دماءهم ، على أن لهم ما حمت الإبل من أموالهم ، إلا الحلقة ، كما تقدم .
« وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ
نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِنَ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ)

« لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ
لَيُؤْتِنَ الْأَذْبَرُ » أى منهزمين ، « ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ » أى بنوع ما من أنواع النصر .
والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (لَا تَنْتُمْ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)
« لَا تَنْتُمْ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » أى

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

هم رهبونكم أشد من رهبتهم من الله ، لاحتجابهم بالخلق عن الحق ، بسبب جهلهم بالله ، وعدم معرفتهم له ، إذ لو عرفوه لشعروا بعظمته وقدرته وعلمه ، ولم يستخفوا بمعاصيه ، ويستخفوا بأوامره . والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بِأَسْهُمٍ يَذُنُّهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) « لَا يُقَاتِلُونَكُمْ » أى اليهود وإخوانهم « جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ » أى بالحصون ، فلا يبرزون إلى البراز « أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ » أى من خلف حيطان ، لفرط رهبتهم منكم . « بِأَسْهُمٍ يَذُنُّهُمْ شَدِيدٌ » . قال الزمخشري : يعنى أن البأس الشديد الذى يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن ، والعزير يذل ، عند محاربة الله ورسوله . انتهى .

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » أى تظنهم مجتمعين لاتفاقهم فى الظاهر ، والحال أن قلوبهم متفرقة ، لاختلاف مقاصدها ، وتجاذب دواعيها ، وتفرقها عن الحق بالباطل . « ذَلِكَ » قال المهايى : أى الاجتماع فى الظاهر ، مع افتراق البواطن ، « بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » أى أنه يوجب جبنهم المفضى إلى الهلاك الكلى . انتهى .

وفى هذه الآيات الثلاث تشجيع للمؤمنين على منازلتهم ، والحمل عليهم ، وتبشير لهم بأنهم المنصورون الغالبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ، ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى

مثل هؤلاء اليهود من بنى النصير ، فيما نزل بهم من العقوبة ، كمثل من نالهم جزاء بغيرهم من قبلهم ، وهم كفار قريش في وقعة بدر ، أو بنو قينقاع . قال ابن كثير : والثاني أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم قبل هذا . انتهى .

قال قتادة : إن بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد . وكان من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بحلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت . فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعمده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواتها ، فضحكوا بها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع فحاصروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى الشام - والتفصيل في السير - .

وقال ابن جرير^(١) : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال إن الله عز وجل مثل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب ، مما هو مديقهم من نكاله ، بالذين من قبلهم من مكذبى رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذين أهلكهم بسخطه . وأمر بنى قينقاع ، ووقعة بدر ، كانا قبل جلاء بنى النصير . وكل أولئك قد ذاقوا وبال أمرهم ، ولم يخص الله عز وجل منهم بعضاً في تمثيل هؤلاء بهم دون بعض . وكل ذائق وبال أمره ، فن قربت مدته منهم قبلهم ، فهم ممثلون بهم فيها عنوا به من النثل . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ أُكْفِرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[١٧] (فَكَانَ عَقِبَهُمُ الْمَأْتَمُ فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

« كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ » أى مثل المنافقين في إغراء بنى النضير على القتال ، ووعدهم النجدة أو الخروج معهم ، ومثل الخداع بنى النضير بوعده أولئك الكاذب ، كمثل الشيطان « إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ أُكْفِرْ » أى إذ غرّ إنسانا ووعدته على اتباعه وكفره بالله ، النصره عند الحاجة إليه « فَلَمَّا كَفَرَ » أى بالله ، واتبعه وأطاعه « قَالَ » أى مخافة أن يشركه في عذابه ، مسلماً له وخاذلاً « إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ » أى فلا أعينك « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » أى في نصرتك فلم ينفعه التبرؤ ، كالم ينفع الأول وعده الإعانة « فَكَانَ عَقِبَهُمُ الْمَأْتَمُ فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ » أى في حق الله تعالى ، وحق العباد . أى وهكذا جزاء اليهود من بنى النضير والمنافقين ، الذين وعدوهم النصره . وكل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به . إنهم في النار مخلدون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مِّمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ » أى بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

قال المهايغي : يعنى أن مقتضى إيمانكم أن لا تأمنوا مكر الله ، فاتقوه أن يسلب عليكم الشيطان ليفويسكم بالكفر ، ثم يتبرأ منكم .

« وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مِّمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » أى لما بعد الموت من الصالحات « وَاتَّقُوا اللَّهَ » إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجازيكم بحسبها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » قال ابن جرير^(١) : أى لاتكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذى أوجبه عليهم ، فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات .

وقال القاشانى : (نَسُوا اللَّهَ) أى بالاحتجاب بالشهوات الجسمية ، والاشتغال بالذات النفسانية (فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) حتى حسبوها البدن وتركيبه ومزاجه ، فذهلوا عن الجوهرة القدسية ، والفطرية النورية .

وقال ابن القيم في (دار السعادة) : تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً . وهو أن من نسى ربه ، أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه ، في معاشه ومعاده ، فصار معطلاً مهملاً ، بمنزلة الأنعام السائبة ، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ، لبقائها على هداها الذى أعطاها إياه خالقها . وأما هذا نخرج عن فطرته التى خلق عليها ، فنسى ربه ، فأنساه نفسه وصفاتها ، وما تسكمل به ، وتركوا به ، وتسعد به فى معاشها ومعاها . قال تعالى^(٢) (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) فغفل عن ذكر ربه ، فانقرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات له إلى مصالحه وكآله ، وما تركوا به نفسه وقلبه ، بل هو مشتت القلب مضيعه ، مفرط الأمر ، حيران لا يهتدى سبيلاً . فالعلم بالله أصل كل علم ، وهو أصل علم العبد بسعادته وكآله ، ومصالح دنياه وآخرته . والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكآله ، وما تركوا به وتقلع به . فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٨ / السكهف / ٢٨] .

« أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى : الذين خرجوا عن الدين القيم الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وخانوا وغدروا ، ونبدوا عهد الله وراء ظهورهم ففسدوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)

« لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ » وهم الناسون الغادرون « وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » وهم المؤمنون الملتزمون الموفون بعهدهم . « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » أى : بالنعيم القيم .

تنبيهان

الأول - قال الزمخشري : استدل أصحاب الشافعى رضى الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر . انتهى .

ورد الاستدلال بذلك أحد أئمة الشافعية ، وهو برهان الدين فى (تفضيل السلف على الخلف) بما مثاله :

احتج بهذه الآية بعض الشافعية فى مسألة قتل المسلم بالذمى . وهذا فى غاية الضعف ، لأن أحداً لم يسوّ بينهما . وإيجاب القصاص ليس بتسوية ، لأنه ما من متباينين فى وجوه ، إلا وقد استويا فى وجه أو وجوه . فلا يكون إيجاب القود استواءً ، كما لا يكون إيجاب الدية والكفارة استواءً . فهذا كلام من ضعف نظره فى مورد الانزعاع من شواهد الفرقان . انتهى .

الثانى - قال أبو السعود : لعل تقديم أصحاب النار فى الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذى يبنى عنه عدم الاستواء ، من جهتهم ، لا من جهة مقابلتهم . فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين ، زيادة ونقصاناً ، وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد ، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص ، وعليه قوله تعالى ^(١) (هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى

(١) [١٣ / الرعد / ١٦] .

وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) إلى غير ذلك من المواقع . وأما قوله ^(١) تعالى (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فاعمل تقديم الفاضل فيه ، لأن صاته ملكة لصلة الفضول والأعدام مسبوقة بملكاتها . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ » أى الجامع للمواعظ ، الموجب للنظر والتقوى بكل حال ، « عَلَىٰ جَبَلٍ » قال المهايى أى بتفهمه له ؛ وتكليفه بما فيه ، بعد إعطاء القوى المدركة والحركة « لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا » أى متذللاً لمظمة الله « مُّتَصَدِّعًا » أى متشققاً « مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » أى مع عظم مقداره ، وغاية صلابته ، وتناهى قساوته . قال القاشانى : أى قلوبهم أقسى من الحجر فى عدم التأثر والقبول ، إذ الكلام الإلهى بلغ من التأثير مالا إمكان للزيادة وراءه ، حتى لو فرض إنزاله على جبل لتأثر منه بالخشوع والانصداع « وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى وتلك الأمور ، وإن كانت وهمية ، مفروضة ، فلا بد من اعتبارها وضربها للناس الذين نسوا صغر مقدارهم فتكبروا ، ولينهم فقست قلوبهم « لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أى ليعلموا أنهم أولى بذلك الخشوع والتصدع .

قال الزمخشري : الآية تمثيل كما مرّ في ^(٢) قوله (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ) وقد دل عليه قوله (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة تخشعه ، عند تدبر القرآن ، وتدبر قوارعه وزواجه .

ثم أشار تعالى إلى أنه كيف يترك الخشوع لذات الله وأسمائه ، مع أنه :

(١) [٣٩ / الزمر / ٩] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٧٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

[٢٣] (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٢٤] (هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية إلا له .
 « عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى ما غاب عن الحس وما شهود « هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » أى
 المنعم بالنعمة العامة والخاصة . ومن كان مطلقاً على الأسرار يجب أن يخشع له ، ويخشى منه ،
 لا سيما من حيث كونه منعماً . إذ حق المنعم أن يخشع له ، ويخشى أن تسلب نعمه « هُوَ اللَّهُ
 الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَلِكُ » أى الغنى المطلق ، الذى يحتاج إليه كل شيء ، المدبر للكل
 فى ترتيب نظام لا أكمل منه « الْقُدُّوسُ » أى المنزه عما لا يليق بجلاله ، تنزهاً بليغاً « السَّلَامُ »
 أى الذى يسلم خلقه من ظلمه ، أو المبرأ عن النقائص كالعجز « الْمُؤْمِنُ » أى لأهل اليقين
 بإزالة السكينة ، ومن فزع الآخرة « الْمُهِمِّنُ » أى الرقيب على كل شيء باطلاعه واستيلائه
 وحفظه « الْعَزِيزُ » أى القوى الذى يغلب ولا يُغلب « الْجَبَّارُ » أى الذى تنفذ مشيئته على
 سبيل الإجبار فى كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذى لا يخرج أحد عن قبضته - قاله
 الغزالي فى (المقصد الأسنى) - .

وقال الإمام ابن القيم فى (السكاية الشافية) :

وكذلك (الجبار) من أوصافه والجبر فى أوصافه قِسْمَانِ

جبرُ الضعيف . وكل قلب قد غدا ذا كسرة ، فالجبرُ منه داني
والثانِ جبرِ القهرِ بالعزِّ الذي لا ينبغي لسواه من إنسانِ
وله مسمًى ثالثٌ وهو العدا وفليس يدنو منه من إنسانِ
من قولهم (جِبَارَةٌ) للنخلة الـ مليا التي قاتتْ بكل بَنَانِ
«الْمُتَكَبِّرُ» أى الذى يرى الكل حقيراً بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء
إلا لنفسه ، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد . « سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى من
الأوثان والشفعاء . « هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ » أى المَقْدَرُ للأشياء على مقتضى حكمته .
«الْبَارِئُ» أى الموجد لها بعد عدم . «الْمُصَوِّرُ» أى السكائنات كما شاء . « لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى » أى الدالة على محاسن المعاني ، وأحسن المباح . « يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أى فى تديره خلقه ، وصرفهم فيما فيه صلاحهم
وسعادتهم .

تنبيهات :

الأول - قال السيد ابن المرتضى فى (إيثار الحق) : مقام معرفة كمال الرب الكريم ،
وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد الذى لا بد منه . لأن كمال الذات
بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذاتٍ لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عُدَّ مذهب
الملاحدة فى مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكايدهم للإسلام ، فإنهم عكسوا المعلوم عقلاً وسمعاً
فدَمَوْا الأمر المحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النقي ، والجحد المحض ، وضادوا
كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله ^(١) (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ
بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) . وقال سبحانه وتعالى ^(٢) (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ
أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) . فما كان منها منصوصاً فى كتاب الله

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من ججده ، أو زعم أن ظاهره اسم ذمّ لله سبحانه . وما كان في الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هذه المرتبة ، أو كان مختلفاً في صحته ، لم يصح استعماله ، فإن الله أجلّ من أن يسمى باسم لم يتحقق أنه تسمّى به .

ثم قال : وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ما ورد في الحديث المشهور في تعدادها ، مع الاختلاف الشهير في صحته . وحسبك أن البخاريّ ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوّل . واتفاقهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه . ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم في وعده من أحصاها بالجنة ، كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء ، فأما إذا كانت أسماءها سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما في كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر . وقد ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروى بالضرورة والنص .

ثم أطال رحمه الله في ذلك وأطاب . فليرجع إليه النهم بالتحقيقات .

الثاني - قال الغزاليّ في (المقصد الأسنى) - وهو من أنفس ما ألف في معاني الأسماء الحسنى - : هل الصفات والأسماء المطلقة على الله تعالى تقف على التوقيف ، أو تجوز بطريق العقل ؟ والذي مال إليه القاضي أبو بكر الباقلانيّ أن ذلك جائز ، إلا ما منع منه الشرع ، أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى . فأما ما لا مانع فيه فإنه جائز . والذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن الأشعريّ ، رحمه الله عليه ، أن ذلك موقوف على التوقيف ، فلا يجوز أن يطلق في حق الله تعالى ما هو موصوف بمعناه ، إلا إذا أذن فيه .

والخيار عندنا أن نقصّل ونقول : كل ما يرجع إلى الاسم ، فذلك موقوف على الإذن ، وما يرجع إلى الوصف ، فذلك لا يقف على الإذن ، بل الصادق منه مباح دون الكاذب . ثم جوّد رحمه الله البيان بما لا غاية بعده .

الثالث - قال السيد ابن المرتضى في (إيثار الحق) : قد تكلم على معانيها جماعة من أهل العلم والتفسير ، وأكثرها واضح ، والعصمة فيها عدم التشبيه ، واعتقاد أن المراد بها أكمل معانيها ، السكّال الذي لا يحيط بحقيقته إلا الله تعالى .

ثم قال : ولا بد من الإشارة هنا إلى أمر جليّ ، وهو أصل عظيم ، وذلك تفسير الحسنى جملة : فاعلم أنها جمع (الأحسن) لا جمع الحسن . وتحت هذا سر نفيس : وذلك أن (الحسن) من صفات الألفاظ ، ومن صفات المعاني . فكل لفظ له معنيان حسن وأحسن ، فالمراد الأحسن منهما حتى يصح جمعه على (حُسْنَى) ، ولا يفسّر بالحسن منهما إلا الأحسن بهذا الوجه . ثم بين مثال ذلك فانظره .